



Propriety of the Erich Fromm Document Center. For personal use only. Citation or publication of material prohibited without express written permission of the copyright holder.
Eigentum des Erich Fromm Dokumentationszentrums. Nutzung nur für persönliche Zwecke.
Veröffentlichungen – auch von Teilen – bedürfen der schriftlichen Erlaubnis des Rechteinhabers.

مقدمة

**بقلم هانز يوزغن شولتز الإنسان أكثر مما هو
مقابلة مع إيريش فروم:**

تعود هذه النصوص الإذاعية مع إيريش فروم إلى السنوات الأخيرة من حياته. لم يكن لدى فروم فراغ طول حياته... كان يقرأ، يكتب، يخطط، يحاضر، كان محباً للاطلاع جداً، هكذا كان حتى آخر حياته. لكن إنتاجه الضخم المؤلف من اثني عشر مجلداً تركها وراءه كاملة، وصلت به إلى الذروة، ومنها كان باستطاعته الوصول إلى ما يصبو إليه لو أنه كان يريد استغلال الظروف ويحسب الأمور في حينها. إن قيمة المحاضرات المعادة هنا في تقييم جيد ومكثف لجملة أعماله الكاملة، ليست بالجديد فيها، ولكن أيضاً بصيغة عرضها. وقد كانت المحاضرات والمقابلات تجري في بيت السيد فروم في لوكارنو، أو في مبنى الإذاعة في زروبخ، والراغب في الحصول عليها كان باستطاعته أن يستدرکها لاحقاً، لأن هذا الرجل العظيم كان يدعو الناس ويستقبلهم في بيته ويلبي طلباتهم.

بغض النظر عن الإصدارات الأولى التي طبعت على الآلة الكاتبة اليدوية في حينها، فإننا نعرف فروم في هذا البلد فقط من خلال الترجمة، ككاتب من مقاطعة ساكسن في جنوب ألمانيا. لكنّه في هذه النصوص الإذاعية يعود إلى الوطن من خلال اللغة الألمانية الأم... وهي تفعل فعلها المباشر والمميز، لأنها لغة أصلية، ليست حديثة النشأة، وبالاستناد إلى ماتياس كلاوديوس فإن اللغة المكتوبة شبيهة بمزيج الخمر والماء في الكوز... لقد فصل فروم

دوماً الكلمة المحكيّة، لغتنا، أي لغة الخطابة، ومن يعرف فروم يميّزه من نبرة صوته عندما كان يقرأ أو يتكلّم.

قابلت فروم للمرة الأولى عام 1970، ثم بعدها مراراً في شتورشن في زوريخ. والغريب أن هذا الرّجل كان يلعب دور المضيف لمن يقابله، لقد تكلمنا حول سلسلة المحاضرات التي تدور حول آثار تخمة الرّفاهية في المجتمع، التي سيتكلّم حولها في المقابلات الإذاعيّة. هناك جلس قبالي وبشكل يلفت الانتباه، لم تظهر عليه علائم الانزعاج من الفوضى التي كانت تعمّ المكان، وقد عرض عليّ ما في جعبته من مواضيع، وعندما انتهى قدّرت أنه عازم على القيام بما فكرت به. لكنّه لم يفعل، والآن جاء دوري، طلب - معتذراً - ولكن بإلحاح وقيل كل شيء معلوم عمّن يحتمل حضورهم... عن أولئك الذين ادّعوا متوهمين علمهم بالأوضاع الألمانيّة. كان يريد بذلك ملاسة فهم الحضور، كان يراقب أحناكهم قبل أفواههم، كطريقة بدائيّة لإفهامهم. لقد استعدّ جداً لبرنامجي، فأحضر كميات كبيرة من الملاحظات والشّروحات والاقتراحات المكتوبة، وكان خلال لقاءاتنا وتبادلنا للأفكار يعدّها لها ويزيد عليها. في صبيحة اليوم التالي ظهر وكأنّه بلا وسائل ومستندات تركيز داعمة. سألته عن حقيبتة الخاصة، هزّ رأسه بسخريّة، وتابعنا السّير إلى مركز الإذاعة.

أخذ مكانه أمام الميكروفون بدون تلكؤ، وبدأ يتحدث بشكل حرّ ومباشر، واستمرّ على ذلك ستّ جولات كل منها /29/ دقيقة. كان شرطه الوحيد أن أكون شخصياً متواجداً أمامه، كان يريد شخصاً يقابله، شخصاً

يجعل منه كمن يوجّه إليه الخطاب أو يناظره. كانت سعادتني كبيرة. إن المناظرة في قاعة الإرسال الإذاعي كانت حرةً ومركّزة، واعتُبرتْ نموذجاً مميّزاً لصالحننا.

في الوقت الذي كان فيه فروم يشرح ويعالج الموضوع، تأكد لي أنّ شيئاً ما يدور في الخارج خلف الزجاج. وعلى الرغم من أن فروم حتّى حينه لم يكن معروفاً بشكل جيّد، فقد كان هناك في زوريخ، في أرجاء المحطة الإذاعية، حديث حوله، بمعنى أن هناك ما يستحقّ الاستماع إليه. كان العاملون في محطة البثّ من مختلف الاتّجاهات والاختصاصات: الفنّيون، طواقم السّكرتاريا، حراس، خدم، رفاق في النّشر والتّحرير... تواجدوا مزدحمين الكتف بالكتف، ضاق بهم المكان، وكلّهم إصغاءً للسيد فروم. إنني شخصياً لا أصغي للحوارات الإذاعية بتركيز قويّ، على الإنسان ألاّ يعطيها الكثير من الاهتمام إلاّ بالقدر الذي يبقى للسامع حرية القبول من عدمه. لكن فروم جعل السامعين يخرجون عن هذه القاعدة، فهو يسيطر عليهم من خلال البساطة السّاحرة في التّواصل، وبحيث يتواصل معهم متجاوزاً كل الصعوبات. كيف يحدث ذلك؟ إن فروم يفكر ويعمل بشكل منطقيّ، والشريك المحاور بالنّسبة له كان المحاور وما يمثّله وما يحمله من أفكار معاكسة، هي بالنّسبة له حقائق. ولكن فروم حسب لكلّ منها حسابها في تفكيره، لقد كان متكلماً ومجادلاً فذاً، لأنّه كان أيضاً بالمقابل مستمعاً جيّداً.

هكذا كان الأمر في محطة زوريخ، وفي هذا الوقت بالذات أصبح جلياً لديّ أنّ كتب إيريش فروم في أمريكا التي كانت لسنتين عديدة في المرتبة

الأولى على رأس المبيعات، ستغادر مخبأها وعزلتها عندنا، في انطلاقة قوية إلى الملاء، لا رجعة عنها. حتى الآن هناك حوالي اثني عشر كتاباً من مؤلفاته معروضة في الأسواق، وبعائتي قادي كان على فروم أن يأتي شخصياً لينهي هذا السبب الطويل لمؤلفاته هنا. إنها حالة غريبة، ولكن يمكن تفسيرها: هنا كان يوجد كتاب ولكن من نوعية متشابهة واحدة تقريباً.

كان صوت فروم وهو يتكلم هو الجسد النابض للغة، وأعماله المتنوعة كانت متميزة مشوقة، حتى لو كانت تعالج مشكلة واحدة، لما فيها من تمايز في الأجوبة، ولما في إعادة المعالجة من غوص وتجديد، ومن تعامل مختلف ومتجدد دوماً، ومن تلمس لنواح جديدة للمتلقى.

إنني أتذكر للسيد فروم خطاباً رائعاً مميزاً ألقاه في حفلة بمناسبة عيد ميلاده الـ (75) في لوكارنو حيث قضى فيها السنين الأخيرة من حياته. كانت القاعة مزدحمة جداً بالمشاركين، شباباً وبالغين، من النساء والرجال، ومن مختلف البلدان. ألقى خطابه، وبعد حوالي ساعة من الإلقاء، توجه بالرجاء لمن تعب من الإصغاء أن يعلن ذلك كي يتوقف هو عن الكلام. لكننا كنا بعد ساعتين ونصف من الإصغاء لخطابه نشطين، كما كان هو... لقد تكلم وتكلم، وهو يتحرك على المنبر ذهاباً وإياباً... كانت حقاً رحلة فكرية سقراطية، مجلة برؤى اجتماعية جميلة عاشها معه الجميع بروح فلسفية مميزة. كان فروم، وهو يتكلم، كله يقظة وانتباهاً... كان ذلك الخطيب المفوه الذي يشارك مستمعيه مشاعرهم، كان بين الحين والآخر يعود إلى بعض المدونات لمحاضراته أو خطابه،

مسوّدات لمحاضراته تركها عندي للمراجعة والتدقيق عند اللزوم. كانت الجوهر، وتمثّل رؤوس أقلام المحاضرة، كانت بغاية التركيز يعود إليها عند الحاجة، لكنّه لم يخرج يوماً عن الموضوع الذي يعالجه، والذي كان مقدراً أن يكون تحليلاً نفسياً. في هذه المحاضرة شخصّ فروم الأخطاء الاجتماعية التي قد ترافق أية نظرية، ليس فقط معللاً الأسباب، بل كان يعللها ويوضحها بالاستناد إلى العالم فرويد، بحيث شرح أن ما ذهب إليه من العلم يتضمن ثلاثة أشياء رئيسية:

* الاستنتاج العلمي الهام بما كشف عنه.

* التّحديد الدقيق الصائب للمشكلة، من خلال التّنظيم الواضح

والإخراج البياني للمضمون.

* أخيراً تطبيق ذلك بما فيه من رفق جديد للسوية المعرفية الحالية.

لقد اعتمد فروم العالم فرويد كأحد المرجعيّات العظام في تفسير الأحداث. بالنسبة لي، كانت محاضرة فروم القمة في ميدان التّحليل النفسي، والذي يجب أن يشكّل نظرية كاملة متكاملة. هذا يعني أن تكون لها المرجعية الوحيدة في معالجة وتحليل المشاكل، وإيجاد الحلول لها، إنها لا تغفل، عندما تحدّد بدقّة، وتحيط بالمشكلة، أن تجد الطّريقة المثلى لإزالة الأعراض المرضية المسبّبة، وبالتالي الشفاء والتخلّص منها.

كان الميل الذي تفرّد به إيريش فروم طيلة حياته، هو الرّغبة الصادقة بأن يكون شهيد الحقيقة، التي قضى حياته متحدياً في البحث عنها، ومهما كانت صعبةً ومنهكة، حتى لو كانت ضدّ رغباته، إلى أن يحصل

عليها. إنَّ الإنسانَ قد يكونُ أحياناً لعبةَ القدرِ الخفيّةِ. وقد كان فروم يتجنّب الأضواءَ ويفضّل العملَ والبحثَ بعيداً عن الأنظار = «هو في القمّة لكنّه في حضن الأم». وكان لفروم من الجرأة أن يظهر بقوة، وقد خلع عنه كلّ الأقنعة وأزال العوازل، لم يتهرّب من منتقديه كما قد يتوهّم البعض، ويشكّكون، إنّه شخصياً يراقب ويحلّل حتّى ذاته... وقد صرّح لي مرّة: لا تعتقد يوماً أنني أتساهل مع نفسي، إنّ كلمة سِفَر الرُؤيا تعني التجلّي... وهذا ينطبق على فروم تماماً، وهو ما لم يكن بالأمر السهل.

إن الأساس في كلّ ما ذكر، هو أن فروم لم يفقد اليوّصلة، لم يغفل عن ذاته، لا بالتفاصيل الأساسيّة ولا بالجزئيات الجانبية. ليس المهمّ بالنسبة له هذا أو ذاك من الأمور، إنّما المهمّ هو الحياة، إنّ الأمر يتعلق بمصيرنا الذي دخل في أزمة خانقة، إذ أصبح الإنسان هو عدوّ الإنسان ذاته، إنّها البربريّة الحديثة، البدائيّة الحديثة، البدائيّة الحضاريّة، تجهز وتحضّر (كما تحضّر البرامج الإذاعية). كما نلاحظ أن الأمور من حولنا تقزّم في وسط حضاريّ متقدّم للأسف، إنّ الإنسان المعاصر يسوّي أمورهِ مع الغير، لكن ليس مع نفسه، وهو أحياناً غير مقتنع بذلك. إنّ إنسان العصر بقدر ما يكون صغيراً تكبر مطالبه، إلى درجة أنّه يضحّي بنفسه من أجل تحقيقها.

إنّ الثمن الذي تتطلّبه الأمراض المتزايدة النفسيّة والروحيّة الاجتماعيّة يجعل الإنسان يبذل جهوداً كبرى في تأمين وضعه الاقتصادي، وينتج عن

هذا الوضع أخطار حياتية وأخطار جرائم ذاتية وظواهر ميول انتحارية، وقد قام فروم بالتحذير من مخاطرها، وتوصيف مظاهرها، بحيث يجب التأكد منها، فلا يهملها بل يضع الحلول لها.

كان فروم صديق الإنسانية، ينتظر من الإنسان الكثير ويثق به كثيراً. إن الصداقة الحقة هي المقدرة على التعايش مع الآخر ومشاركته آماله وآلامه، وقد أصبحت نادرة في الوقت الحاضر.

كتب فروم: «أنا لا أدري أن الناس يعانون أقل من السابق. هم أصبحوا أكثر بعداً عن بعضهم بعضاً، بحيث أنهم أصبحوا أقل شعوراً بمآسي بعضهم بعضاً، ثمة أناس لم يعرفوا السعادة في حياتهم».

ولكن لا يوجد أحد البتة لم يعان أو لم يتألم طيلة حياته، ومن لم يذق الألم مرة لا يمكن أيضاً أن يشعر بالسعادة. إن مرارة الأسي بالنسبة لكل الناس، أو بالأحرى لكل من لديهم إحساس بالحياة، تولد نفس المشاعر وآثارها، لذلك فإن مشاركة المشاعر بالأسي للناس في العالم تشكل العزاء والسعادة للآخرين، وتأخذ بيدهم وتساعدهم على تجاوز مآسيهم. بمثل هذه الأفكار التي تجذرت لدى فروم استطاع أن يكون نصيراً للكثير من البشر.

حزيران 2011

هانز يورغن شولتس